

قراءة في الإنتاج الفكري للدكتور سعد الله.

~~~~~ د. أبو بكر الصديق حميدي\*

مقدمة: لقد كان بزوغ نجم هذا المفكر في عالم الكتابة والفكر منذ نعومة أظافره، وحينما اكتملت خيوط عواطفه وملامح رشدته العقلي وقدرة أصابعه على تركيب الكلمات؛ ولم تكن الظروف الطبيعية والعوامل الاجتماعية ولا الوضع الاستعماري عوائق أمامه للاستكانة والركون إلى عالم الجمود ككثير من أترابه وأبناء بيئته، وهنا نقف على عنصر التحدي الكامن لديه، وقد نعبّر عنه بالإرادة المبكرة التي تغلبت على العوائق القائمة، وهو ما يمكن أن يصنفه البعض أحيانا بالموهبة، ولكن في الحقيقة أن الإمكانات والقدرات لا ترى النور إلا إذا امتزجت بالإرادة القوية على فرض الذات وتحديد الهدف.

إننا ننظر هذه المسألة بحكم أنه توفر لغيره ما لم يتوفر له ولكنهم عجزوا عن بلوغ مراميهم، وذلك لأن الرجل توفرت لديه الإرادة وتحديد الهدف، وهما مرتبط الفرس لدى كل العظماء وفي كل المجالات.

وهذه الإرادة ظهرت منذ وقت مبكر فكان من الذين توجهوا لتونس في 1947 وتحصل على شهادة الأهلية سنة 1951 وشهادة التحصيل في 1954م، وقضى هذه السنوات في حياة صعبة جدا ولكنه انكب بكل جد على التحصيل حتى بلغ مراميهم، وتحصل على المرتبة الثانية في دفعته، وكان له نشاط مناهض للاستعمار ورئيسا للطلبة الجزائريين<sup>1</sup> أو بعثة الطلبة التابعة لجمعية العلماء الجزائريين بين (1952-1954)، وهذه الإرادة استمرت في الإنتاج العلمي وخاصة التاريخي منه الذي ركز فيه على التاريخ الوطني وكان له إنتاجا غزيرا هو جدير بالدراسة والوقوف على أهم آرائه وطروحاته اتجاه العديد من القضايا التي نود طرحها في هذا البحث: الكتابة التاريخية، الخط الفكري لسعد الله، سعد الله والصحافة، وقفات مع التاريخ الجزائري، نظرة الغرب للتاريخ الجزائري.

\*- أستاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر - شعبة التاريخ - جامعة محمد بوضياف - المسيلة.

معنى المسؤولية عند سعد الله: إن الظرف الذي وجد فيه سعد الله وما اختارته له الأقدار كان ضمن واقع عربي يعيش حالة من الصراع مع الذات والاستعمار للوقوف على الأقدام، ومن أوجه ذلك البحث عن الهوية والانتماء والوطنية ضمن طروحات النهضة بكل أبعادها، ورأى أنه لكل مجاله الذي يمكن أن يساهم فيه لبناء هذا المشروع النهضوي المتعدد الأبعاد، وكان خياره التكفل بفترة الفكر والثقافة بكل ما تحمله هذه المفردات من معاني، وما تتطلبه من مصاعب وتكاليف، إنه البحث في هوية هذا الشعب أولاً وإحياء تراثه وربطه بماضيه وجغرافيته وأبطاله ليقف في نفسه من هو أولاً ثم يخوض معركة النهضة الفكرية والسياسية، فالمسؤولية عنده هي: إخراج كنوز البلاد من تراث أدبي وفني وتاريخي ليتعرف عليه أهله، هي تسييح حدود البلاد بمعاملها الثقافية والتاريخية، هي التراجم لأهل الفضل من العلماء والتقريظ لكتبهم وحراس الثقافة والحواسر العلمية، هي الوفاء لمن قاوم في البحر والبر عبر القرون وخط بعرقه ودمه شيئاً يسمى الجزائر، هي البناء الفكري والعقلي للأجيال بالقلم والمحاضرة والمناقشة ليكونوا ورثة في العلم يستمرون في إكمال مشروعه، فما تركه من مكتوب وما كونه من أجيال هو خلود له.

التاريخ هو مسودة السوابق السياسية وذاكرة الجنس البشري: يعتبر سعد الله التاريخ مدرسة لتعليم الأجيال السياسية ومستودع السوابق السياسية، فالمشاكل التي تواجه الجيل الحالي تكون قد طرحت مراراً سابقاً بشكل من الأشكال، وإن كان الإنسان عندما يبلغ سن النضج والاكتمال فإنه يصبح يهتدي ويتصرف بحكمة تجاربه التي تعيها ذاكرته ومبادئ السلوك التي يستمدّها حكمه من التجارب المذكورة. فكذلك الجنس البشري رغم أنه لا يملك مواصفات الفرد من الناحية الشخصية والشعور الذاتي المستمر، وليس له ذاكرة طبيعية ولكي لا يفقد الثروة الضخمة المتجمعة من تجارب الماضي وجب أن تنشأ له ذاكرة، وذاكرة الجنس البشري هي التاريخ، فهو الذي يوفر له الشعور الذاتي، وهذا الشعور الذاتي هو الذي يسيطر به على مستقبله<sup>2</sup>.

وهذه القراءة من الدكتور سعد الله إنما تؤسس لتواصل الذاكرة البشرية عامة فيما بينها، وتجعل التجارب والنظم وإنتاج الحضارات بين أيدي الإنسانية كلها لتستفيد منها، وحيث ما أرادت أن توظفها. ومن جهة أخرى فإذا قرنا هذا المفهوم باهتمام الدكتور سعد الله بالتاريخ الجزائري وخاصة التاريخ الحديث منه فإنه أراد أن يؤسس لذاكرة جزائرية ارتسمت فيها ملامح الدولة الحديثة بشكل أوضح، وحاول أن يبرز العناصر الثقافية وتبلور الدولة الجزائرية وبعدها

الإقليمي، وإبراز التراكم الرفض للاحتلال عبر المقاومة العسكرية والسياسية، وهذا الجهد كله يصب في صناعة ذاكرة جزائرية إحساسا منه بشح وندرة المادة التاريخية التي تخدم هذا المجال.

منهجه في التحقيق للوصول إلى الحقيقة: إن التعامل مع الظاهرة التاريخية ليس كغيرها وخاصة لدى الأكاديمي الذي تمأوت أمامه كل المؤثرات مقابل الوصول إلى الحقيقة، والتي تبقى نسبية، ومن هذا المنطلق فقد فتش أبو القاسم سعد الله في رفوف الأرشيف الجزائري والفرنسي والعربي والأمريكي آخذا المعلومة حتى من القادة العسكريين الفرنسيين أثناء قمعهم للمقاومات، ولكنه يتعامل معها كرؤية معينة لها مآلها وعليها ما عليها، وفي نفس الوقت فهو لا يميل إلى الكتابة التي تقلل على نغم عواطف التمجيد الزائدة بل الموازنة بين معطيات البيئة، وصاحب الوثيقة وظروف الحدث وأعراف وتقاليد المجتمع ضمن الاحتكام إلى منظومة القيم والأفكار التي تنقاسمها الشعوب صولا إلى موقع كتابة مرحلة تاريخية من تاريخ الجزائر وحظها ضمن هذه الشعوب بسلياقها وإيجابياتها، وضمن هذا السياق فهو يأخذ بمقولة: "المؤرخ الحق أن يكون عدلا غير متحيز لهوى، ولا مائلا إلى جهة، وأن لا يغلبه الهوى على الإنصاف، فيجعل الحق باطلا والباطل حقا، ويطنب في مدح من لا يستحق حبه، ويقصر في الثناء على مستحق المدح لجرد أنه لا يميل إليه أو لكرهته أو لاختلاف في المذهب أو لغير ذلك من الأسباب التي تجور بها الأحكام، ويختل بها الميزان"<sup>3</sup>؛ فالتاريخ ليس كالفلك علم معاينة مباشرة ولا كالكيمياء علم تجربة واختبار ولكنه علم نقد وتحقيق.

ولهذا فالدكتور سعد الله يوعز كتابة التاريخ الحقيقي للأكاديميين وليس لما يعرف بالتاريخ الرسمي، أو النوع الآخر من التاريخ الشعبي<sup>4</sup>؛ فالدكتور سعد الله ساهم في تجاوز الدراسة المجردة للحدث أو الاستناد كليا إلى المدرسة الكولونيالية يشقيها المتزعم بالرؤية العسكرية الاستعمارية أو المناهضة له تحت عباءة التيار اليساري أو غيره، بل كان يعمل وفق رؤية تجمع بين أخذ المادة العلمية حيث كان مصدرها وباللغات المتاحة ودراسة للأحداث وتفسير للأفكار في إطار تحرير الماضي من الاستنتاجات الخاطئة. والأحكام المسبقة وهو ما سايه عليه الدكتور سعيدوني من حيث التصور التاريخي في إطار إسلامي مبني على الموضوعية والنقد التاريخي بهدف تجديد الذاكرة للأمة الجزائرية<sup>5</sup>.

لقد أعاد سعد الله إلى حد كبير الأمور إلى نصابها، فبعد الانحراف التاريخي الذي حاولت المدرسة الفرنسية صنعه من خلال مئات المؤلفات التي تصور منطقة الجزائر أرضا تداولت عليها

دول قوية حضاريا وشعوب أخرى من الفينيقيين إلى الرومان والفرنسيين بحكم أن هذه المنطقة هي عبارة عن شعوب وقبائل وأعراق وثقافة بالية، مما ساهم في خضوعهم لهذه الدول والشعوب التي قدمت للمنطقة، وهذا تبريرا لوجودهم بالجزائر ثم تركيز المدرسة الاستعمارية على التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والعسكري وأنماط الإدارة، وبعض المظاهر الدينية الطرقية وإهمال للتاريخ السياسي والثقافي والاجتماعي الحقيقي وخاصة المرحلة التي رسمت فيها الحدود السياسية وصارت لها إدارة مركزية، وشوكة قوية في العالم<sup>6</sup>.

التواضع أمام العلم والحقيقة: لقد لقبه الكثير بشيخ المؤرخين والعالم وغيرها من الألقاب التي هو أحق بها بمجدا، ورغم ذلك تراه يقدر الحقيقة التاريخية ولا يتجافى عنها أو يعرض عنها ولو بعد فوات الأوان، فتراه يراجع نفسه وما كتبه في كل مرة بل في كل طبعة جديدة، وفي هذا الصدد يقول رحمه الله في حق الذين راسلوه بعد صدور الطبعة الثانية من تاريخ الجزائر الثقافي: "لن أعرف عن ذكر هؤلاء المشايخ والباحثين الذين قرأوا الكتاب بدقة، وأرسلوا إليّ بتصحيحات واقتراحات استفدت منها في هذه الطبعة، وأخص بالذكر منهم الشيخ محمد الطاهر التليلي والشيخ عبد الرحمن الجيلالي والشيخ المهدي البوعبدلي..<sup>7</sup>".

فهذه الروح العلمية المنحنية أمام الوقوف على الحقيقة وقبول التصحيح والنقد من الآخر هي صفة العلماء، وكان سعد الله يقول في أكثر من مقام إنه: نَقَحَ وصَحَّحَ بعض الأخطاء التاريخية في الطبعة الجديدة<sup>8</sup>، وهذا يدل على أن الرجل مدرسة في التنقيب المتواصل والتواضع والحوار الثقافي، وتشعر أنه لا يكتب شيئا يخصه ولكنه ملكا للجميع، فهو يتحرى ويتواضع ويراجع حتى يسلم العمل على أحسن صورة من النقاء للأجيال.

سعد الله والكتابة في الصحافة: كان نبوغه مبكرا في الكتابة، وهذا منذ أن كان طالبا في الزيتونة حيث مقالاته القوية في اللغة والأفكار، والتي غصّت بها الجرائد الجزائرية مثل النهضة والبصائر، والتونسية مثل الأسبوع، واللبنائية مثل الآداب<sup>9</sup>.

بل حاول أن يكتسب المواهب الطلابية من خلال المنابر العامة وبخاصة "رابطة القلم الجديد"<sup>10</sup> التي كانت فرصة لأن تسيل من خلالها الكثير من الأقلام الجزائرية والتونسية من أدب وشعر وفكر، وضمت أعدادا كبيرة منهم محمد العيد آل خليفة، والأخضر السائحي ومن تونس منصور صمداح، والشاذلي زكار، وكانت تحمل شعار: نريد أدبا تريده الحياة، وأثناء انتقاله لمصر

ظل محافظا على انتاجه الأدبي ومراسلا لجريدة البصائر التي كثرت وتعددت بها مقالاته حاملا عبرها هموم وطنه وكانت صورته تتصدر مقالاته<sup>11</sup>.

الفكر الموسوعي لسعد الله: إننا لا نتناول هذا الجانب في شقه المعرفي والثقافي المكتسب لدى الشخص، ولكنه معزز بالممارسة والكتابة؛ فهو الصحفي المبكر وفي بلاد الغربة (تونس ومصر) الذي تناول القضايا الأدبية والفكرية والسياسية والثقافية، وهو العارف بالعلوم الشرعية، حافظا للقرآن وبعض المتون الشرعية واللغوية، وبالتالي فهو الماسك لما يسمى بصلب العلم الشرعي واللغوي مما سهل عليه الانتاج الشعري والنثري والصحفي المشبع بالقيم الروحية والاتزان الشرعي الدائم في إخراج لغوي سهل وسلس دون رطانة أو تكلف، وقد عزز هذه الإمكانيات باطلاعه على ثقافة الآخر من خلال إتقانه للفرنسية والانجليزية وبعض الفارسية والاسبانية وهذا مما فتح له آفاق البحث والاطلاع وخاصة لما دخل الكتابة التاريخية من بابها الواسع، فكان نَهْمًا لمعرفة تاريخ الشعوب والأمم وركز كتاباته على تاريخ الشعوب والأمم وركز كتاباته على تاريخ أمته ووطنه تحديدا فكان موسوعة تاريخية مجدارة فتنوعت كتاباته من التاريخ السياسي إلى الثقافي والبحث في قضايا المجتمع والزوايا والشعراء والمداحين، شيوخ التصوف والعلماء، وكتب في تحقيق التراث (رحلة ابن حمادوش، ورسالة الغريب إلى كسب الحبيب لأحمد أبي عصيدة البجائي، تاريخ العدواني لمحمد بن محمد العدواني، ومنشور الهداية لشيخ الإسلام ابن الفكون، ابن العنابي، وخاض في الترجمة (حياة الأمير عبد القادر لشارل هنري، والجزائر وأوروبا لجون وولف...)

وربما لا نكون مبالغين إذا قلنا أننا نعجز أحيانا عن توصيف كل الجوانب التاريخية التي أثارها، وهو دائما يحب أن يكون كاتباً بلغة القرآن رغم أنه يجيد غيرها وكان حاله يقول أنا أكتب لبني وطني وأمتي أولاً، مقدرا لقيمة المسؤولية الملقاة على عاتقه، وهذه الموصفات جعلته يستحق مجدارة عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

الخط الفكري لسعد الله: إنه من الصعوبة بمكان تحديد الخط الفكري لهذه الشخصية الفذة لأن الأمر لا يتعلق بصحيفة حتى نرصد توجهها أو كتاب معين. ولكننا أمام رجل له عشرات المؤلفات والمقالات وحياة عامرة بالترحال والخلطة والمساهمات وبالتالي يتسع علينا الإلمام بذلك والأمر الثاني ليس في مثل مستوانا من يلم ويحيط بهذا الأمر. ولكننا نحصر ما استطعنا من هذه المعالم ونحن على دربة التعلم وقد قلت يوما وأنا أحاضر بجنبه في ملتقى بعناية (وليسمح لنا الآباء أن

يتعلم في حضرتهم الأبناء) فكانت نظراته مليئة بروح القبول والرعاية (رعى الله روحه وجعلها من عباده الصالحين).

#### ومن ملامح التوجهات العامة في كتاباته:

1- الانفتاح على الآخر من كتاب المدرسة الاستعمارية ومستشرقين آخذاً منهم وراداً عليهم بالحجة والتدليل، وهي لغة المحاور الواصل بالانفاس ويترك للقلم مفعوله في توطيد الحقيقة.

2- الانحياز إلى الخط الوطني الواسع الذي يستحضر ماضيه بسليباته وإيجابياته، ويركز على الركائز التي ارتسمت عليها ملامح الدولة الجزائرية الحديثة من حدود وجغرافيا ومجتمع وثقافة وعلاقات وتأثير وتأثر، شأنها في ذلك شأن الشعوب العريقة. وهو في نفس الصياغ يرد بمجموع هذا العمل على ناكري جذور أو حدود هذا الوطن مركزين على فترات عابرة أو صراعات جزئية. وكان سعد الله يرد عليهم بلغة الوثيقة والحدث والتاريخ والرجال والمقارنة بغيرها من الأمم في كلام هادئ يخاطب العقول الجاحدة عليها تستنير. فهو يرد على الفرنسيين لماذا التركيز على الفنيقيين والرومان ويتناسون الحماديين والعثمانيين وهو بهذا الحال من الكتابات يضعهم أمام مساءة التاريخ أليست هذه القرون كافية للاعتراف بعراقة الأمة وترسيم حدودها السياسية والجغرافية مع الجيران، أليست المعاهدات التي كانت مع الدول الأوروبية وهي<sup>12</sup> بالعشرات ومع دول الجيران، بل كان الجميع يطلب ودها أو يخشى سطوتها.

3- نموذج المثقف الذي يحتفظ بقناعاته في الكتابة بعيداً عن المؤثرات قدر المستطاع فهو لا يكتب حسب الحاجة أو الطلب، أو المؤرخ الرسمي كما هو الحال عند بعض الدول أو مطبل المناسبات أو يتملق عند العتبات، ويواجه الحادث كما هو مستبعداً هاجس الخوف من التاريخ.

4- إن ضخامة الأعمال ومحتوياتها وتنوعها من حيث المحتوى والمنهج تعد مساهمة إنسانية تضاهي وتفوق من يسطع نجمهم على أهم مؤرخين عالميين على الرغم من ضالة انتاجهم أو نوعيته مقارنة به.

5- ومن الملامح البارزة أيضاً في كتاباته البعد الذي كان يحمله الحرف والكلمة والفكرة والقضية التي يناقشها في أبحاثه، فالبينة المحافظة والتربية الدينية والوسط الزيتوني والمشرقي كانت كلها حاضرة في قلمه بالوفاء لمسقط رأسه ووطنه وجمعية العلماء ورجالها وذكريات الزيتونة والحاضرة التونسية وسحر الشرق وهموم الأمة العربية والإسلامية.

6- إن التنقيب عن الشخصيات المغمورة وإظهار جهدها من أمثال العلماء وفكرهم ومؤلفاتهم، وسير الحكام أو أبطال المقاومة في هذا الوطن هو بمثابة الدعوة إلى معرفة الذات لإدراك الواقع وتجاوز الحصار الفكري والثقافي القائم والتطلع إلى خوض غمار المساهمة الحضارية على غرار بقية الشعوب، وأن لا تقتصر معرفتنا على أعلام الشرق والغرب ونسيان كنوزنا المحلية وكأننا نتجاهل ذواتنا أو كما قال الدكتور سعيدوني حتى خيل للملاحظ أن الجزائر مقبرة لعظماء الرجال وسجن لذوي الفكر النير<sup>13</sup>.

#### سعد الله المثقف والتحدي:

-إننا لما نقرأ بعض المذكرات للدكتور سعد الله ومسيرة المعاناة في البحث وخدمة الوطن وكيف واجه الحياة سواء قبل الاستقلال أو بعده نقف على قدرة التحدي وإرادة الوصول إلى الهدف رغم المصاعب والعراقيل مختاراً صفة العالم المثقف، وهي معادلة صعبة التوفيق في زمن صار المثقف عامة إما أن يكون بين دور الخادم أو الذي يعيش العزلة<sup>14</sup>، بين العدمية أو إثبات الذات، إما أن يكون وسيلة أو صاحب رسالة.

-إن أعماله التاريخية والأدبية كلها كانت في ظل مناخ ثقافي مشيط، يتعامل مع قضايا التاريخ بثقافة النسيان وشروح كبيرة على مستوى الشخصية الوطنية واضطراب في الذاكرة الجمالية<sup>15</sup>، ولكنه بعدلته لم يساير هذا المناخ بقدر ما كيف نفسه للوصول إلى هدفه، ولم يكن من النخبة التي سايرت الأحداث وبررت مواقف رجال السياسة والتي لا ترى التاريخ ضرورة لثقافة وطنية.

-عجبت لهذا الرجل الذي يتقنى أثر كل حرف كتب عن الجزائر حتى في الخارج، فيرصد لنا حتى عدد رسائل الدكتوراه التي نوقشت في الولايات المتحدة الأمريكية حول الجزائر وفي مختلف التخصصات وبالتفصيل. إنه الباحث الأصيل الذي يقدم المعرفة والمعلومة لأبناء وطنه عن وطنهم<sup>16</sup>.

رأيه في الكتابة التاريخية: يرى سعد الله- وهو في تواضع مستمر- أن الكتابة التاريخية عملية متجددة "يمارسها كل جيل بالقدرة العقلية التي وصل إليها والوثائق المتوفرة لديه والمستجدات الحضارية التي تحيط به"<sup>17</sup>، وبالتالي فهو إقرار بأنه لم يغلق البحث في المواضيع التي خاضها، والباب مفتوح أمام الذي يأتي بعده ليكتب في نفس الموضوع حسب ظروفه وإمكاناته ووثائقه وثقافته...

ويرى أن الكتابة التاريخية غالباً ما تعكس المستوى الثقافي لذلك الجيل، وهي ما تعكس ما يسمى التجدد في الكتابة التاريخية، ويرى أن المؤرخ يعكس الجيل الذي يعيش فيه من ثقافة ومناخ حر ومحفزات وبطولات الشعب، وهذه كلها تساعد على تدوين أو تجديد الكتابة التاريخية. وحول معاصرة المؤرخ للأحداث فيراها سلاح ذو حدين: فقد تكون شيئاً ضرورياً لإلقاء الضوء على الحوادث فالقريب من الحدث زماناً ومكاناً أقدر الناس على وصفه، ولكن من ناحية أخرى تكون حجاً يستتر المؤرخ عن قول الحقيقة ويغشى بصره عن التفوه بكل الأحداث على الوجه الصحيح، وهذا تبعاً للقرب من الحكماء أو خوفاً منهم أو لاعتبارات تتعلق بالأشخاص وما ينجم عنها من عداوات<sup>18</sup>.

وفي رؤية تاريخية حول الدول والشعوب والمجتمعات وصراع الشعوب والحروب بينها وقف على أن الأمر له علاقة وطيدة بصراع الفاسد مع الصالح وصاحب السلطان والمسود وما بينهما من تنازع وتدافع وصراع بين الخير والشر<sup>19</sup>، وفي غالب الأحيان أخذ الصراع طابعاً مميزاً وهو مسيرة الشعوب نحو التحرر والاعتناق من جهة وتسلب بعض القوميات أو الحضارات عليها من جهة أخرى<sup>20</sup>.

النفس الطويل في الكتابة: لفت انتباهي وهو يؤرخ لنفسه في الكتابة وخاصة ما تعلق بكتابة تاريخ الجزائر الثقافي الذي قال عنه أنه ثمرة أربعة عقود ورجع بنا إلى عهد الإبراهيمي (1960) الذي قال عنه أنه مشغوف إلى حد الافتتان بالبحث عن الآثار الأدبية والعلمية لعلماء الجزائر، وأكد سعد الله ذلك أنه ظل يهتم بهذا الشأن منذ نعومة أديمه وعبه الوطني بهدف إبراز مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية عبر العصور<sup>21</sup>، لأن الفرنسيين بثوا فكرة غياب الماضي السياسي والثقافي، والدارسين العرب أهملوا ذلك. ولذلك عكف سعد الله إلى إخراج هذه الكنوز الثقافية وتصنيفها وتقييم هذه الأعمال. والكشف عن علماء الجزائر والتأليف التي صدرت خلال هذه المرحلة، وهذا العمل فتح الشهية لمؤرخين آخرين للبحث والتنقيب في هذه المرحلة مما فتح الآفاق لإبراز الإرث الثقافي والمساهمة الجزائرية في التراث العربي الإسلامي.

رأيه في القضايا الكبرى: ومن القضايا الكبرى التي خاضها في كتاباته التاريخية وبعد تنقيب طويل كان جريئاً في إبداء ملاحظاته حول العديد من القضايا والتي تقتصر على أهمها:

1- الجزائر منطقة صراع بين حضارات كبرى: اعتبر سعد الله أن كل من بغداد وقرطاج تمثلان مارتان للإسلام فانطقت الأولى في القرن الثالث عشر والثانية في القرن الخامس عشر الميلادي، لكن تعويضهما كان عن طريق اسطامبول في الشرق والجزائر في الغرب إلا أنهما لم يكونا بديلا في العلم والفنون والآداب. ولكن الجهاد البحري هو الذي ساد في ظل الغروب العلمي لدى العرب والمسلمين.<sup>22</sup>

كما أن منطقتنا كانت دائما مسرح تنازع بين الشرق والغرب؛ فروما ومدريد وباريس من جهة، وفينيقيا ومكة واسطانبول من جهة أخرى، وهما صفتان لبحر واحد وظل التوتر والتزاوج قائما بينهما وقلما كان السلام بينهما.<sup>23</sup>

2- حول التاريخ الجزائري: وحول تاريخ الجزائر يرى أنه كاد أن يتوقف حين توقف استنطاق الشواهد والوثائق والاستفادة من المعطيات الحضارية الانسانية، وأنا لم نكتب تاريخنا كله بمراحله وعلاقاته المتشابكة وخاصة فيما تعلق بكتابة تاريخ الثورة، وأرجع ذلك التوقف عن الكتابة في بعض القضايا إلى الخوف من التاريخ نفسه وبذلك يصبح إهمال التاريخ محاولة لدفن آثار الجريمة الجماعية.<sup>24</sup>

ويرى أن التاريخ الجزائري لم يعرف هذه الظروف، وأرجع أن أكبر سبب أيضا في خلق المؤرخ وازدهار الكتابة التاريخية إلى غياب المركزية الثقافية عبر تاريخ الجزائر وسيادة حالة التشرذم السياسي واللغوي إلى أن وصل للعهد العثماني الذي تواصل فيه هذا التشرذم الثقافي والقومي اللغوية وسيادة العامية وعدم فرض لغة مركزية واحدة، وصارت العربية لغة الدين والتركية لغة الإدارة، أما العهد الفرنسي فلا يتطلب الإجهاد في البحث عن الأسباب لغياب المركزية السياسية والثقافية معا.

كما أن اللغة الفرنسية في الإدارة والعربية في التعليم في مرحلة ما بعد الاستقلال يدخل في اللامركزية الثقافية على غرار العهد التركي.

ويرى أن الفرصة مازالت فمعظم الشعوب تحاول استعادة كتابة تاريخها بناء على المعطيات الحضارية والظروف، وأن إعادة كتابة التاريخ تعطي المؤرخ فرصة لتوظيف عناصر كانت غائبة في مرحلة سابقة للمؤرخ.<sup>25</sup>

3- نظرتة للعثمانيين بالجزائر: فالتتبع لدراساته المختلفة حول علاقة العثمانيين بالجزائر فإنه يشخصها على أن الرابطة بينهما هي عقيدة الإسلام المتمثلة في ولاء الخلافة، ولكن العثمانيين لم يحترموا هذا المبدأ؛ "فتركوها" الحكم ونظروا للجزائريين نظرة الغالب للمغلوب<sup>26</sup>، والدليل على ذلك أنهم حكموا باسم الإسلام سكان البلاد، ولكنهم لم يشاركوهم أو يشركوهم في الأمر أو يختلطوا بهم، وأسأؤوا التصرف أحيانا إليهم، فكانوا متميزة احتكروا الحكم طيلة العهد العثماني<sup>27</sup>. ويرى أن المظهر العسكري الجهادي للعثمانيين في الجزائر والتهديد الخارجي جعل حالة الخوف الدائم من الخارج والاستبداد في الداخل، ووصل إلى أن نظام الحكم العثماني أشبه بالنظام الجمهوري العسكري المغلق (جمهوري- لأن الحكم منتخب- وعسكري- من رياس البحر أو الانكشارية- ومغلق- لأنه نظام لا يسمح فيه إلا للوجع بممارسة السلطة)<sup>28</sup>، وامتد الانغلاق إلى أن حكام البلاد لم يكونوا قد ولدوا بالجزائر أو تربوا فيها أو تعلموا لغة أهلها، والأغرب من ذلك أن أبناء الباشوات يمكن أن يرتقوا المناصب أبنائهم إذا كانوا من أمهات تركيات أو حتى أسيرات مسيحيات بينما لا يسمح بذلك لمن كانت أمه جزائرية مسلمة<sup>29</sup>.

ورغم ما أسداه للعثمانيين من دور في مواجهة الأخطار الأجنبية فإنه لم يتوان في لوم الأتراك وبخاصة الداوي حسين وغيره من الحكام<sup>30</sup>.

4- الكتابة حول الثورة الجزائرية: عموما يعتبر أن الجزائريين قليلو الكتابة مقارنة بالشعوب الأخرى، كما قال ذلك ابن خلدون عن شعوب المغرب العربي كلها، وكذلك قليلي الكلام وحذرين في الكتابة والكلام عن الآخرين.

وفي هذا الشأن قال سعد الله: إذا استثنينا بعض المحاولات يمكن القول أن الجزائر بلا مؤرخين، وأن معظم الذين تناولوا تاريخها هم غرباء عنها أو أعداء لها سياسيا وثقافيا، ومن سوء حظ هذا البلد أن أبناءها لم يسجلوا أحداثها إلا قليلا ولم يهتموا بدراسة تاريخها، ولذلك نعيش اليوم مشكلة ندرة الوثائق والمراجع، ولذلك فالباحث مضطر أن يعود للكتابات الأجنبية من رحلات ورسائل ومذكرات وخاصة ما تعلق بالقرون الأربعة الماضية<sup>31</sup>.

وحول الثورة الجزائرية قال أن حياة المجاملة وعلاقات الحذر جعلت هناك ركودا في الحياة الفكرية والأدبية والفنية وحمول في التفكير السياسي، وكتابة تاريخ الثورة يدخل ضمن هذا الركود.

وهو يميز بين ثلاث أنواع من الكتابة التاريخية التي تهتم بالثورة:

1- كتابة رسمية: وتتكفل بها الدولة لتظهر مواقفها واتجاهاتها نحو المستقبل؛ وأعطى مثالا بالثورة الروسية، وبذلك يسد الفراغ أمام الأجانب.

2- كتابة شعبية: والتي يخوض فيها غير المتخصصين من ساسة وصحافيين وأدباء، وكتاب الوقائع... للإشادة بالثورة وإظهار أصالتها وأهدافها ويعزز الإنتاج في هذا المضمار على غرار ما كتب الكثير من الفرنسيين حول الثورة الفرنسية وغيرها.

3- كتابة علمية: وقوم عليها أهل الاختصاص بناء على الوثائق وإصدار أحكام تاريخية بناء عليها، وفيما يتعلق بالثورة يرى أنه لم تتوفر الوثائق اللازمة والظروف المناسبة إلى الحد الآن وخاصة أن رجال الثورة مازال منهم الأحياء ومنهم أطراف معيون في قضايا معينة، ومثل ذلك يقال عن الأحزاب والجمعيات، كما أن المؤرخ الذي عاش المرحلة ما يزال متأثرا وبالتالي فالبعد الزمني غير كاف ليحكم ويتجرد<sup>32</sup>.

ويعتبر المرحلة الحالية أصلح لجمع المادة الشفوية والمكتوبة والمساهمة في كتابة التاريخ الشعبي، وربما هذا سيجيء في القريب إلى كتابة علمية من قبل المختصين.

5- نظرتة للطرق الصوفية: لقد كان اهتمامه بدراسة هذه الظاهرة الدينية والثقافية عامة وفي الجزائر خاصة بشكل كبير وقال أن هذه الطرق الصوفية تنكمش على نفسها عند قوة الدولة الإسلامية ولكنها تنفتح على الغير وتنشئ وتعظم حتى تصبح بعبعا عندما تضعف الدولة الإسلامية أو يحرق بالمسلمين الخطر الخارجي "الكافر"<sup>33</sup>، وأنه كان الاتجاه الإيجابي التاريخي للطرق الصوفية. فهو دور إيجابي من خلال العمل الجهادي زمن الأزمات ودور روحي زمن الازدهار الإسلامي إلا التيجانية والعباسية والحنصالية فقد كان أمرهم غير ذلك<sup>34</sup>، وأخذ التيجانية بالتحديد وقال أن موقفها غير مبرر من الوجهة الوطنية.

6- الاهتمام بالنظرة الأمريكية للجزائر: ومن العناصر القليلة التي اهتمت بالدراسات الأمريكية، ومدى اطلاع الأمريكيين على شعوب شمال إفريقيا وعادتهم، والدراسات التي اهتمت بالمنطقة وخاصة الجزائر وخاصة أولف أندرو هيغوي (Alf. A heggoy) وبول زينق (Paul J. Zingg)<sup>35</sup>.

ولفت أنظارنا إلى النظرة الأمريكية المبكرة في الاهتمام بتاريخ ووضع الجزائر، وهذا من خلال القناصل، الأسرى وظهرت العديد من الدراسات التاريخية التي تصف الوضع في الجزائر وخاصة شلو وليام الذي دعا في كتابه الصادر في 1826 إلى احتلال الجزائر ثم كيف قرأ سعد الله النظرة الأمريكية التي تمجد تاريخهم وبطولاتهم في محاربة القرصنة والبحرية الجزائرية وكيف سايرت النظرة الفرنسية تجاه الجزائر ثم الدراسات التاريخية المتخصصة المدعومة بمراكز البحث والمكتبات والمنح والزيارات والترجمات<sup>36</sup>، واعتبر أن هذه الدراسات تعد إحدى المربعات الأساسية التي ينجم عنها اتخاذ القرار الأمريكي في مختلف المناسبات<sup>37</sup>.

7- الثورات وتأثيراتها: من خلال تجربته في دراسة الثورات وخاصة الحديثة منها (الثورة الفرنسية، الروسية، الصينية..) أنها جاءت تنويعا وتطبيقا لمجموعة من الأفكار والمواقف التي تعكس آمال الجماهير الكادحة منذ عهد الرومان إلى القرن العشرين. وبالتالي هو يعتبر الفكرة الصالحة عمل فردي وتبقى خامدة حتى تجد من يتعهدا فتظهر في شكل مذهب أو ثورة.

وأنه ليس من الضرورة أن تظهر نظريات تسبق الثورة وأعطى مثالا بأمريكا، وبعد الثورة يضع لها ساستها نظريات ويصير لها مرجعا وفلسفة معينة. كما أن المعاصرة تحجب الجانب النظري للثورة، ولذلك كثير من الثورات أظهرت وجهها من طرف الأجيال اللاحقة كما هو الحال مع الثورة الفرنسية<sup>38</sup>.

كما أن قوة الثورة تكمن في فكرتها وأن الفكرة الصالحة لا تعترف بالحدود وبالتالي عليها أن تخرج من إقليمها الضيق وإلا غزتها أفكار أخرى أقوى من الخارج.

ويعرج على الثورة الجزائرية على أنها فعلا عبرت عن آمال الإنسان المضطهد وتقوم على "التحرر عن طريق القوة والعقيدة معا، والقيادة المشتركة، والتحول الاجتماعي المادي دون التضحية بالعوامل الروحية، وتحقيق العدالة دون الدخول في متاهات الصراع الطبقي"<sup>39</sup>. ولكن يقول أن هذه المبادئ لازالت محلية ولم ترتقي إلى نظريات يقتفي بها غيرنا، وتتحول من خصوصيتها إلى مبادئ ونظريات عامة، وعلى الثورة أن تقنع أرباب الفكر بأهمية مبادئها وإنسانيتها وفعاليتها ليهتموا بها ويضعوها في نظريات عامة<sup>40</sup>.

8- نظرتة للغرب المسيحي: لم يجد سعد الله مثيلا للفرنسيين في التاريخ إلا التتار الذين شاركوهم في صفة الإبادة والهمجية أثناء الاحتلال ولم يسلم من ذلك حتى البابوية والدول الأوروبية وروسيا

القيصرية الذين باركوا الغزو<sup>41</sup> للإنسان والأرض والثقافة والدين في الجزائر واعتبروها حملة الخلاص الديني. وأيدهم الأمريكيان من خلال ثيودور روزفلت<sup>42</sup>. فمن خلال هذه الأعمال التي استعرض في ثناياها تهديد السواحل الجزائرية واحتلالها من قبل الدول الأوروبية قبل قدوم العثمانيين والمباركات التي حظيت بها الحملة الفرنسية من الغرب المسيحي كل حسب طريقته وعرضه المتسلسل لجرائم الاحتلال والخروج بقاعدة مفادها أن منظومة القيم الإنسانية وثمار الديمقراطية وضروب الحرية وأهلية الرقي وحسن العلاقات التي تغني بها الغرب الأوروبي أو الأمريكي وكأنها في نظرهم تصلح بين شعوبهم وليس داخل الشعوب الأخرى وهي عمق العنصرية ونقض لكل أبعاد الحرية.

وأن النظرة الفرنسية السلبية عن الجزائريين ظلت قائمة، ويسوقون بأن الجزائريين لا يستطيعون إعلان استقلالهم ولا يتمكنون من طرد غزائهم، بل الغازي الجديد يطرد الغازي القديم. ولا يخضعون إلا بالقوة<sup>43</sup>، وأنهم خليط من العناصر غير المتجانسة في هذه المنطقة الجغرافية، وبالتالي فاختل وظيفته فرض سلطته على الجميع حتى يحصل التعايش وكأن وجوده ضرورة قائمة لا مفر منها، كما يصور الفرنسيون أنفسهم حلقة ضمن هذه القوى التي توافدت على المنطقة وساهمت في تحضيرها وربطها بالعالم الخارجي، ورد سعد الله على الفرنسيين الذين يدعون أنهم جاؤوا لنشر الحضارة الإنسانية بأنهم ناشري الرعب والخراب. بل عليهم الاعتراف بالجريمة والتعويض عما نهبوه منها<sup>44</sup>.

#### الهوامش:

- 1- سعيدوني ناصر الدين، دراسات وشهادات مهددة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 491.
- 2- ج هونشو، علم التاريخ، ط2 ن دار الحداثة، ترجمة عبد الحميد العبادي، 1982، ص 211، 112.
- 3- محمد عبد النبي حسن، علم التاريخ عند العرب، مؤسسة المطبوعات الحديثة، مصر، 1961، ص 39.
- 4- سعد الله أبو القاسم، تأملات وأفكار، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005، ص 113.
- 5- سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ج 2، ص 13.
- 6- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، ص 41.
- 7- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998، ج1، ص 12. --- 8- نفسه، ص 12.
- 9- محمد حسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، دار هومة، الجزائر، 2000، ج3، ص 12. --- 10- تأسست في 1952.
- 11- قدمت له صورة في 2009 بالجامعة كانت منشورة بالبصائر ذكرته بأيام شبابه بالقاهرة، فحرك رأسه مبتسما ومراجعا للزمن الطويل الحافل بالأحداث.
- 12- هناك اتفاقيات مع فرنسا وصلت إلى 70 اتفاقية ومع بريطانيا إلى 18 وهولندا 11 اتفاقية وغيرها من الدول، وبلغ تمثلو القناصل والسفراء الفرنسيين بالجزائر بالاسم 96 ممثلا أو قنصلا. أنظر، مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر وهيئتها الدولية، دار الأمة، الجزائر، 2012، ج2، ص 262. --- 13- ناصر سعيدوني الدين، الجزائر منطلقات وآفاق، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 473.

- 14- للمزيد عن وضع المثقف الجزائري، أنظر، ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 473. --- 15- راجع حول هذه الفترة: ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص 16.
- 16- أنظر: سعد الله أبو القاسم، بعض رسائل الدكتوراه الأمريكية عن الجزائر، مجلة الدراسات التاريخية ع9، 1995/1415، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ص 229. ---
- 17- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء، مصدر سابق، ج4، ص7.
- 18- محمد عبد الغني حسين، علم التاريخ عند العرب، مؤسسة المطبوعات الجامعية الحديثة، 1961، ص 55.
- 19- أبو القاسم سعد الله، شعوب وقوميات المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985، ص07. --- 20- نفسه، ص 08.
- 21- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مصدر سابق، ج1، ص 13.
- 22- سعد الله أبو القاسم، "الاندلس ذكرى وعبرة" مجلة الدراسات التاريخية، ع08، جامعة الجزائر، 1994/1993، ص 05.
- 23- نفسه، ص 06. --- 24- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء، مصدر سابق ج4، ص 7.
- 25- نفسه، ص 10. --- 26- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، مصدر سابق، ص 140.
- 27- نفسه، ص 141. --- 28- نفسه، ص 144.
- 29- نفسه، ص 145. --- 30- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، مصدر سابق، ج 01، ص 20.
- 31- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء، القسم الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1981، ص 53.
- 32- نفسه، ص 46. --- 33- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، مصدر سابق، ج 1، ص 298.
- 34- نفسه، ص 299. --- 35- أبو القاسم سعد الله، نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري، مجلة الدراسات التاريخية، ع5، 1408هـ، 1988، معهد التاريخ، الجزائر، ص 138.
- 36- نفسه، ص 148. --- 37- أبو القاسم سعد الله، "بعض أطروحات الدكتوراه الأمريكية"، مقال سابق، ص 98.
- 38- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مصدر سابق، ص47. --- 39- نفسه، ص 48.
- 40- نفسه. --- 41- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية، مصدر سابق، ج 1، ص 16.
- 42- وهذا حسب الحاكم الفرنسي العام: كامبون، نفس المرجع، ص 17. --- 43- نفسه. --- 44- نفسه، ص 23.

RESUME: It was the emergence of this thinker in the world of writing and thought since early on, and began his emotions and mental features of his senses and his ability to combine words at a young age. Was not natural conditions and social factors nor the colonial situation of the obstacles in front of complacency and inertia to rely on the world like many of his peers and members of his environment and here we stand on the element the challenge has, has express his will, which overcame early obstacles on the list, which could classify some talent, but sometimes the truth is that the possibilities and capabilities do not see the light unless mixed with strong will to impose self and goal setting.

We ask that this matter by virtue of the availability of the other what is not available to him, but they were unable to achieve the aims and because the man has had the will and goal setting, and two horse stall with all the great in all areas.

This will have emerged since early was of those who went to Tunisia in 1947 and get a certificate of AHLIA 1951 and a certificate of TAHSSIL in 1954 and spent these years in the life of a very difficult but delved very hard on the achievement until he reached the aims and get the second place in the paid and had Activity anti- colonialism. The president of the Algerian students. And this will continue in the production of scientific and especially historical him, which focused on national history and has had a productive thickly is worthy of study and stand on the most important views and arguments the direction of many of the issues that we would like to put forward in this research: historical writing, line of thought to Saad allah, Saad Allah and the press, stops with Algerian history, look to the west Algerian history.